

# **بلاغة التلقي**

## **بين الموروث العربي والراهن الغربي**

### **قراءة في طرح عبد الملك مرتاض البلاغي**

د. زروقي عبد القادر  
جامعة ابن خلدون بتيبازة الجزائر

#### **الملخص باللغة العربية:**

لطالما كان تناول البلاغة في الدرس البلاغي/الن כדי العربي القديم بصفتها بنية جمالية متعلقة بالنص المبدع ولا تتعاد، فهي تأنيق الأسلوب وزخرفة النسج بشتى الألوان البلاغية، وعلى خلاف ذلك كان الخطاب البلاغي المعاصر، إذ شهد تطوراً ونضجاً، خاصة في مفاضلته بين أقطاب العملية التواصلية، لذا يأتي السؤال حول مدى استطاعة عبد الملك مرتاض في الجمع بين التصورين (العربي القديم والغربي المعاصر) في تناوله للبلاغة، خاصة فيما عقده من فصل لهذا الغرض في كتابه "نظريّة البلاغة" بعنوان "البلاغة بين الإرسال والتلقي".

#### **الملخص باللغة الفرنسية:**

La rhétorique a été traitée comme une structure esthétique liée au texte créé. Elle est considérée comme esthétique stylistique et une décoration textuelle de toutes les couleurs rhétoriques. Contrairement au discours rhétorique contemporain qui a évolué et mûri, en particulier dans sa priorité entre les pôles scientifiques communicatifs. Alors La question qui émerge de cela : Est-ce que Abdelmalek Mortadh a pu combiner les deux conceptions (arabe ancienne et occidentale contemporaine) dans son étude de la rhétorique, en particulier dans le chapitre « La théorie de la rhétorique » de son livre intitulé : " La rhétorique entre l'émission et la réception " dans lequel, il a traité le terme de la rhétorique de réception et l'obligation de parité dans l'émission et la réception ?

#### **الكلمات المفتاحية:**

عبد الملك مرتاض، البلاغة ، المرسل، الرسالة الأدبية، المتلقي، القارئ، الاتصال، المقام، إنتاج النص، الموروث العربي، بلاغة التلقي،

#### **Mots clés :**

Abdelmalek Mortadh , La rhétorique, l'émission, la réception , théorie de la rhétorique, décoration textuelle , esthétique stylistique.

نفسك، مع صورة مقبولة ومعرض حسن".<sup>2</sup>  
فمدار العملية التواصيلية إذًا قائمة على ارتباط البلاغة والاتصال، إلى درجة أننا نتمثّلها أمررين مترادفين متعاقبين.

### - مركزية المتلقي

في بحر هذا التصور يمكننا أن نتبين ما أورده الجاحظ من أنَّ الكلام لا يستحق أن يطلق عليه اسم البلاغة ما لم "يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك، أقرب من معناه إلى قلبك"<sup>3</sup>، وذلك يعني أنَّ المتلقي هو قطب رحى العملية التواصيلية، وهو ما أدركه عبد الملك مرتاض حين كان يؤسس لبلاغة التلقى حيث اعتبر أساس نهوض النقد الأدبي "في كل الأدب الإنسانية (... ) على بلاغة التلقى أساساً، فالإعجاب بقصيدة من الشعر، أو برسالة من الرسائل الفنية، أو بخطبة بليفة (... ) ينطلق من مبدأ أساسه تلقٌ سابق لنصوص أدبية رفيعة، تفتدي مثلاً يحتذى عليه في"

إذا كانت عناصر الرسالة الأدبية دون إقصاء لأحد من أطرافها متميزة بتماسكها انطلاقاً مما قال به حازم القرطاجني – وقد أقرَّه على ذلك أعلام السانيات المعاصرة – تنهض أنَّ الأقاويل الشعرية التي "تختلف مذاهبها وأنحاء الاعتماد فيها بحسب الجهة أو الجهات التي يعني الشاعر فيها بإيقاع الحيل، التي هي عمدة في إنهاض النفوس لفعل شيء أو تركه، أو التي هي أعون للعمدة، وتلك الجهات هي ما يرجع إلى القول نفسه، أو ما يرجع إلى القائل، أو ما يرجع إلى المقول فيه، أو ما يرجع إلى المقال له...".<sup>1</sup> هي إذاً عناصر أربعة، ثلاثة منها تمثل في المرسل والرسالة والمتلقي، وهي الأقطاب التي تصنع الخطاب الأدبي، أمّا العنصر الرابع فيتمثل في الموقف الجامع بينهم.

ليكون المقام الذي تساق فيه الرسالة مشكلاً للإطار المعرفي في الجامع بين الباث والمتلقي، حيث يتحد فيه التلقى بالإرسال؛ إذ إنَّ البلاغة على حد قول أبي هلال العسكري "هي كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه، كتمكنه في

<sup>2</sup> أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البحاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا،

بيروت، سنة 1986، ص، 10.

<sup>3</sup> أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجليل، بيروت، دت، 127/1.

<sup>1</sup> أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلاغة وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، سنة 1986، ص، 346.

نلاحظ من خلال هذا التعريف المتشعب التركيز على المتلقي (السامع، المخاطب، المعنى)، ومردد ذلك أنّ البلاغة في كلّ أحوالها إنما تتحسّن وتتغىّب: الانتهاء، الوصول، البلوغ، وهي كلّها أحوال لا يُرام من ورائها، ولا يقصد بها إلاّ المتلقي الذي يتحقق بها ويُجْلِي هذه الأحوال، ومتى كان بلغاً في تلقّيه كانت، بلاغة الأداء، وإن سقطت الرسالة وضاع المبتغى فلا يُتوصل بالنص إلى شيءٍ مما أريد له.

فأعله من نافلة القول أن نجتهد في الإلحاح على التأكيد على مكانة المتلقي، وأن نركّز على ما حظي به المتلقي في البلاغة العربية من موقع مميزة قد يفوق موقع صانع القول ذاته، إذ إنّ غاية هذا الأخير "معرفة أغراض المخاطب كائناً من كان، ليدخل إليه من بابه، ويدخله في ثيابه، فذلك سرّ صناعة الشعر ومغازه الذي به تفاوت الناس، وبه تقاضلوا".<sup>7</sup> فمحمل الاهتمام هو المتلقي الذي يتودّد إليه المرسل حتى يفهمه رسالته، ولذلك يذكر الجاحظ وهو يبيّن مدى ارتباط البلاغة بالمتلقي من أنّ صديقاً له حدّثه أنه سأله العتابي، وهو كلثوم بن عمرو، "ما البلاغة؟ فقال: كل من أفهمك حاجته من

الذهن والذوق والحكم جمِيعاً".<sup>4</sup> فيصير المتلقي بفضل ما اكتسبه من خبرات فنية جمالية نتيجة قراءاته المتتالية المحدّد لللامع النص الجديد وتأطيره في خانة النص الجيد، بعيداً عن المعرفة النظرية وتبعاتها الفلسفية والمذهبية التي قد تكون معياراً يتكئ عليه الناقد المحترف بعدئذ، ليصير المتلقي "اداة أساسية لإنتاج النص وإعادة بنائه".<sup>5</sup>

يُستَّجَّ من كل ذلك أن المتلقي لا يغيب – ولا ينبغي له ذلك – أثناء عملية الإبداع، وهو ما يوحى بأنّ الرسالة في غالبية أحوالها إنما تنشأ بإرادة المتلقي لا المرسل.

إذ البلاغة من قولهم بلغتُ الغاية: إذا انتهت إليها، وبلغتها غيري، الشيء: منتهاه، ... فسميت البلاغة بلاغة: لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه، وسميت البلغة بلغة لأنك تتبلغ بها فتتهي بك إلى ما فوقها، وهي البلاغ أيضاً، ويقال الدنيا بلاغ؛ لأنها تؤديك إلى الآخرة، والبلاغ أيضاً التبليغ، في قوله تعالى: «هذا بلاغ للناس...» [إبراهيم: 52]، أي تبليغ».<sup>6</sup>

<sup>4</sup> - عبد الملك مرتضى، نظرية البلاغة، متابعة لجماليات الأسلبة، إرسالاً واستقبلاً، دار القدس العربي، الجزائر، سنة 2010، ص، 224.

<sup>5</sup> - خديجة غيري، سلطة اللغة بين فعلية التأليف والمتلقي، إفريقيا الشرق، المغرب، 2012م، ص، 238.

<sup>6</sup> - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص، 06.

<sup>7</sup> - ابن رشيق أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، تحقيق محمد محبي الدين عبد الحميد، ط5، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1981، ص، 1/230.

غير إعادة، ولا حبسه، ولا استعانته فهو بلغ<sup>8</sup>.

## - أهمية التلقى

حيث "إذا لم يكن المستمع أحقر على الاستماع من القائل على القول، لم يبلغ القائل في منطقه وكان النقصان الداخل على قوله بقدر الخلة بالاستماع منه"<sup>12</sup>، فالحرص على الاستماع من لدن المتلقى هو مؤشر لضمان نجاح عملية التواصل، وجراء ذلك تمثل كفاءة المتكلم في الحرص على استدراج المتلقى وتعبيته كي تحصل الاستجابة وتتشاءم لديه قابلية التلقى ومن ثم الحرص عليه وتبع ما يلقى عليه من كلام. وعلى ذلك كان تركيز الجاحظ حين نقل عن ابن المقفع في تعريفه للبلاغة على أنها: "اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع..."<sup>13</sup>.

ولما كان المتلقى هو المستقبل للرسالة؛ فإنه يكون بالضرورة المستهدف بالكلام الكامن فيها، وهذا ما يجعل منه الطرف الأقوى في عملية التواصل والركن الأساس في العملية الإبداعية، إذ لو لاه لما حصلت الرسالة الأدبية بالتداول ولا بالاستجابة. فأصبح اكتمال فنية النص من خلال المتلقى، إذ لا يصل الأول – النص – إلى ذراه إلا عن طريق القراءة التي تدفع بتفاعل النص باعتباره وحدات لغوية مع تصور القارئ. وهي الأشياء ذاتها التي سبق للنقد العربي القديم من خلال ابن رشيق أن أشار إليها حين اعتبر أن الذي "يميز الشعر

يطرح عبد الملك مرتاض تصوره في ما دبجه في هذا السفر حول هذه البلاغة التي حاولنا تلمس خصائصها فيما مضى من سطور، وإنما نجملها في القول الذي صدح به أبو هلال العسكري \_ قبل قليل\_ حيث رأى أنَّ البلاغة هي "كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع، فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك، مع صورة مقبولة ومعرض حسن"<sup>9</sup>، أمَّا عبد الملك مرتاض فيقول: "اجتهدنا عبر هذه الفصول في أن نرسم ملامح بلاغة، تمثل فكراً وجملاً وسلوكاً تعبيرياً يقع لعامة المتعلمين في مستويات مختلفة"<sup>10</sup>. فهي إذاً ملامح بلاغة جديدة/قديمة من حيث الاهتمام بالمتلقى وجعله مركز الدائرة، لتكون بلاغته بلاغة تلقٌ لا بلاغة تشكييل أسلوبية قائمة على تشكيل الكلام، أو لنقلُ هي "بلاغة الاستماع" كما قال بها من قبل الجاحظ على لسان ابن المقفع<sup>11</sup>.

لذا سيكون الحديث عن المتلقى باعتباره صانعاً للبلاغة لا متلقيها فحسب،

<sup>8</sup> \_ الجاحظ، البيان والتبيين، 1/126.

<sup>9</sup> \_ أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص، 10.

<sup>10</sup> - عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، ص، 9.

<sup>11</sup> \_ ينظر، الجاحظ، البيان والتبيين، 1/128، وبنظر، ابن رشيق، العمدة، 1/243.

<sup>12</sup> \_ الجاحظ، البيان والتبيين، 2/315.

<sup>13</sup> \_ المصدر نفسه، 1/116.

إلاّ به، وهو ما يجعل العمل الأدبي يشتبه بالخذروف العجيب الذي لا وجود له ولا حياة إلاّ في الحركة، ولأجل استعراضه وتحسسه أمام العين لا بد من عملية حسية تسمى عملية القراءة، وهو يدوم ما دامت القراءة<sup>17</sup>.

بذا يصير طرف الرسالة البليغة الأهم – فضلاً عما يريده المتكلمي من المبلغ – هو المتكلمي الذي يتوقف استقبال الرسالة الملقاة إليه، ومدى تأثره بها انطلاقاً من جمال صياغتها وبراعة ألفاظها ووضوح معانيها. فبلاغة التلقي إذاً لا تقل عن بلاغة الإرسال في علاقة التواصل الأدبي بين الناس<sup>18</sup>. كما أنها الآلة التي تعمد إلى تفعيل النص مع كل قراءة جديدة له.

### - مفهوم بلاغة التلقي

يفرق عبد الملك مرطاض منذ البداية أثناء خوضه في هذا الموضوع بين بلاغة التلقي وبلاحة الإرسال، غير أنَّ الأولى في تصوّره لم تأخذ نصيبها من الدراسة والاهتمام في الخطاب البلاغي العربي، وعلى العكس من ذلك كان للثانية الحظ الأوفر من الدراسة، إذ هي

<sup>17</sup> ينظر، لطفي عبد البديع، التركيب اللغوي للأدب، بحث في فلسفة اللغة والاستطيفا، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، سنة، 1997، ص، 138-

.139

<sup>18</sup> عبد الملك مرطاض، نظرية البلاغة، ص، .241

من لا يقوله، كالبازار يميز من الثياب ما لم ينسجه، والصيرفي يخبر من الدنانير ما لم يسبكه ولا ضربه، حتى إنه ليعرف مقدار ما فيه من الغش وغيره فينقض قيمته<sup>14</sup>.

هكذا كان اهتمام النقد العربي بالمتلقي، فهو يعتبره الشريك الفعلي والأساسي في تحقق الفهم. حيث "كان العربي حين يسمع كلمة بليغة تؤثر في نفسه حتى تأسره أسرًا، فيعجب بها، ويبتذلذ بسماعها، دون التفكير في أن ذلك الكلام أصنعن الاستعارة، أو استخدام الكناية، أو جرى في مضطرب من المجاز، أو تكلف التشبيه فاصطنعه في وجهه آسراً"<sup>15</sup>. هكذا يُصر عبد الملك مرطاض حياة النص الأدبي على ما يمكن أن يتحلى به المتكلمي من كفاءة قرائية، وكلّ غياب لهذه الأخيرة عن المتكلمي يجعل "النص الأدبي المرسل يفقد علة وجوده"<sup>16</sup>.

إن النص الأدبي ليس له وجود فعلي إلاّ عند تلقيه. ولذلك كان الشعر أو الأثر الأدبي عامّة عند لطفي عبد البديع، لا يظهر إلاّ بواسطة القارئ؛ من منطلق أن الظاهرة الأدبية، لا تتحقق فاعليتها إلا بالقارئ، فهو شريك في إعادة تشكيل العمل الأدبي الذي لا يتم اكتماله ونضجه

<sup>14</sup> ابن رشيق، العمدة، 117/1.

<sup>15</sup> عبد الملك مرطاض، نظرية البلاغة، ص، .19

<sup>16</sup> المصدر نفسه، ص، 243

النص الأدبي بكل الثقل الدلالي والجملاني الذي يمثلُ عليه".<sup>21</sup>

لكن قد تتجاوز بلاغة التلقى درجة الإفهام إلى حسن صورة إيصال المعنى إلى القلب، وإنْ كانت هذه البلاغة لا تتجسد بالشكل الكلى إلا في بلاغة القرآن، حيث تعد في المنزلة العليا. ومن هنا لا تكون البلاغة الحقة في إفهام المعنى؛ لأنَّه قد يفهم المعنى متكلماً: أحدهما بلغ، والأخر عيٌّ، ولا البلاغة أيضاً بتحقيق اللفظ على المعنى؛ لأنَّه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غُثٌ مستكره، ونافر متكلف، وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في حسن صورة من اللفظ، فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن".<sup>22</sup>

### - الانسجام بين الباث والمتلقى:

يرى مرتاض أن كل البلاغات الإنسانية قامت "عبر التاريخ الآداب الإنسانية الطويل، على تكافؤ الإرسال والتلقى".<sup>23</sup> إذ لا يمكننا أن نجد أدباً رفيعاً دون متلقٍ على نفس القدر من الرفعة والذوق العالي؛ لأنَّ "أفصح الكلام وأبلغه

القضية الأكثر طرفاً وتداؤلاً في سائر الكتابات البلاغية.

وبالرغم من إقراره بأنَّ "بلاغة التلقى" تكاد تكون رديفة لمصطلح القراءة بمفهومه المعاصر حين يقول: "لا تتناءى كثيراً باصطناننا مصطلح "بلاغة التلقى" (...) عن مفهوم "القراءة" الشائع في اللغة القدية الجديدة"<sup>19</sup>، إلا أنه لا يلبث أن يقف على هذا المصطلح الأخير "القراءة" ليجعل منه قراءات، ليتجاوز به القارئ النمطي إلى أصناف عديدة من القراء. وإنَّ الذي أوعز إليه التعداد القرائي هو المصطلح الأول ذاته "بلاغة التلقى"، انطلاقاً من أنه لا يريد به " مجرد مفهوم التلقى، عارياً عمّا يميزه ليتمحض للتلقى الرفيع في الرسالة الأدبية".<sup>20</sup>

إذاً بلاغة التلقى لدى عبد الملك مرتاض تأخذ الصنف الأعلى من التلقى حيث تبتعد بما يقدّها خصوصيتها الرفيعة فلا تغدو كغيرها من القراءات التي تتعلق بقراءة كل النصوص "صحفية، قانونية، علمية، تاريخية، دينية... وغيرها". فهي أي "بلاغة التلقى"، يفترض فيها وفق تصور عبد الملك مرتاض أن تُحيل على شبكة من الإجراءات تسعى إلى تأسيس حقل لجمالية التلقى المحترف بحاليث/المستوى الفني الذي يستوي فيه

.21 - المصدر نفسه، ص، 223/224.

.22 - أبو الحسن علي بن عيسى الرمانى، النكت في إعجاز القرآن، ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام، دار المعرف، مصر، ط، 2،

سنة 1968م، ص، 69.

.23 - المصدر السابق، ص، 225.

.19 - المصدر نفسه، ص، 223.

.20 - المصدر نفسه، ص، 223.

ليستعين بالمتلقي في حكمه على النصوص وتفسيرها وتوضيحها لمعالجتها وتحليلها وفق ميادين متعددة من المعرفة، كعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الاقتصاد والأنثربولوجيا. مما يسمح لشعرية النص أن تكون وليدة النص وخارجه، وهذا ما يشرع لنا الوقوف على مقتضيات بلاغة التلقي والمواصفات التي يجب أن يتحلى بها المتلقي.

### - شروط بلاغة التلقي:

هي ظاهرة نقدية محورية في النقد العربي القديم ثبّرَ لنا ما أهمية بلاغة التلقي، وما ينفي أن يكون عليه؛ لأنَّه لما تفاصُّ صاحبها عن إدراك مستوى الرسُّل، عمد إلى إقصائه من دائرة الشعراء وإن كانت النصوص التي تعامل معها في ذرى الشعريَّة، فقد قال الأَمْدِي – وهو يمثل لدينا هنا صنفًا من المتلقين الذين غيَّبُهم مستواهم الجمالي والفنِّي عن إدراك شعرية نص أبي تمام، نظراً لتمسكهم بشعريَّة المعيار الذي يمثّلها القول الكلاسيكي – "إِنْ شَئْتْ دُعُونَا حَكِيمًا، أَوْ سَمِينَاكَ فِيلِسُوفًا، وَلَكِنْ لَا نُسَمِّيكَ شَاعِرًا وَلَا نُدْعُوكَ بَلِيغًا"<sup>27</sup>. هكذا تلعب بلاغة التلقي – حينما تغيب – دورها في حجب النص وإقصائه من دائرة التي ينتمي إليها

لو يُلقى في متلقين لا يفهمون لغة ذلك الكلام لما كان له أي تأثير<sup>24</sup>. عندئذ تكون عملية التأليف شرُّكَة بين قطبين هما المرسل والمتلقي – وإن تزعمها أولئك – ولا نجاح لها وإن كانت من أكبر المبدعين ما لم تستقطب متلق فاعل في إنجاح عملية التواصل؛ بل "ربما كانت البلاغة في الاستماع فإن المخاطب إذا لم يحسن الاستماع لم يفق على المعنى المؤدي إليه الخطاب، والاستماع الحسن، عون للتبلیغ على إفهام المعنى".

وقال إبراهيم الإمام: حسبك من حظ البلاغة ألا يؤتي السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتي الناطق من سوء فهم السامع<sup>25</sup>. وعنده يتشرط في المتلقي أن يكون حريصاً على التلقي "الاستماع" اعتماداً على أمرين:

-1 سياق المقال.

-2 ثقافته وما تتيحه له من قدرات في تلقي النص واستيعابه.

لذلك فإنَّ للوضع الاجتماعي أهمية بالغة في تحديد طبيعة المتلقي، وكذلك خصائص النص الذي سيخاطبه أثراً بالغاً<sup>26</sup>؛ لأنَّ التلقي يتجاوز النص

<sup>24</sup> - المصدر نفسه، ص، 225.

<sup>25</sup> - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص، 16.

<sup>26</sup> - ينظر، خديجة غيري، سلطة اللغة بين فعلية التأليف والتلقي، ص، 238.

<sup>27</sup> - أبو القاسم الحسن بن بشر الأَمْدِي، الموازنَة، بين شعر أبي تمام والبحترى، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط٢، مطبعة السعادة، مصر، سنة 1959، ص، 401.

بالكيفية التي تضمن لها التعلق بأحوال المتكلمين على اختلاف أحوالهم ومستوياتهم، وإلا لما كان للنص وجود يذكر فـ "ينبغي أن تعرف أقدار المعاني فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين، وبين أقدار الحالات، فتجعل لكل طبقة كلاماً، وكل حال مقاماً، حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات.

واعلم أن المفعمة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال"<sup>31</sup>. هي شروط إذاً يفرضها المتكلمي على المرسل ورسالته، إذ يجب عليه أن يراعي أثناء إنشائه وتشقيقه الكلام أنواع المعاني وأضريها، ونوع المتكلمي ومستواه؛ بل وحاله ومقامه.

لذا يمكننا الحكم على الشعرية العربية في قرناها الرابع للهجرة من أن شعرها المحدث لم "يستجيب لقارئ سطحي (مخبر) لا قدرة له على التأويل وتشقيق أغلفة الألفاظ وصولاً إلى طبقات المعاني التي يخلقها النص بفضل طبيعته الخاصة"<sup>32</sup>. ولعله المفهوم الذي تعرضه الساسيات التداولية المعاصرة تحت مصطلح "مبدأ التعاون" كما أنّ المتكلمي لا يبلغ ذراه في ما يذهب إليه صاحبه من قدرة على التمييز بين القول البليغ والذي لا بلاغة

ويتعلق بها، وسبب ذلك هو تباين المتكلمي عن المبدع وجفاؤهما عن بعضهما.

لذا يفترض لبلاغة المتكلمي أن تستجيب لشرطها المركزي الذي يفرض على المتكلمي أن يشاطر المرسل في خلفياته الحضارية؛ لأنّ هذا الأخير قد تَحَطَ رسالته وهو يدرك خصائص لغته التي تحيط بما أبدعه<sup>28</sup>. ولما كان المتكلمي – أيّاً من كان ممن عاصر أباً تمام – وافقاً دون مرتبة المبدع "أعرض عن شعره من لم يفهمه، لدقة معانيه، وقصور فهمه عنه، وفهمه العلماء والنقاد في علم الشعر"<sup>29</sup>. مع العلم أنه من واجب النص إثارة القضايا التي تتطلب فكراً ثاقباً وحضوراً دائماً متبعاً لنعرجات ونتوءات واختلاف تضاريس النص، وإنّه انسدّ الأفق التواصلي بين المرسل والمتكلمي وغابت البلاغة بينهما، وحلّت خيبة الانتظار بدلاً من اتساع أفقه.

ولعل ذلك ما استرعى اهتمام الباحثين بهذه الظاهرة في هذا العصر حتى غداً مؤدي حكمهم يقول "لقد بدا نقد القرن الرابع الهجري محكوماً بسلطنة هذا القارئ"<sup>30</sup>. لذا يستوجب مراعاة المتكلمي؛ ويتعين على المرسل أن يستخدم اللغة

<sup>28</sup> - ينظر، عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، ص، 263.

<sup>29</sup> - الأدمي، الموازنة، ص، 19.

<sup>30</sup> - بشري موسى صالح، نظرية التلقي أصول... وتطبيقات، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 2001، ص، 68.

31 - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص، 135.

32 - المرجع السابق، ص، 70.

هكذا يكون دور المتكلّي البارع الذي يتميّز ببلاغة عالية فهو — بفضل ما يتميّز به من فهم وكفاءة أدبية — يستطيع أن يفصل في ما توانى عنه غيره مما لا يمكن إخراجه إلى البيان، ولا إظهاره إلى الاحتجاج، وهي علة ما يعرف إلا بالدرية ودائم التجربة وطول الملasse، وبهذا يفضل أهل الحذاقة بكل علم وصناعة من سواهم من نقصت قريحته، وقلت دربته، بعد أن يكون هناك طبع فيه تقبل لتلك الطباع وأمتناج بها، وإلا فلا يتم ذلك<sup>35</sup>.

إنه المتكلّي البليغ أو القارئ النموذجي الذي " يستطيع أن يتعاون من أجل تحقيق النص بالطريقة التي يفكّر بها المؤلّف نفسه، ويستطيع أن يتحرّك تأوilyاً كما يتحرّك المؤلّف توليدياً"<sup>36</sup>. أمّا نقول هنا ما قال به عبد الملك مرتاض:

إنها بلاغة التلقي أم كفاءة القارئ أو المتكلّي<sup>37</sup>.

وهذا مما ألمح إليه فخر الدين الرازي من كفاءة المتكلّي وهو يتكلّم عن أحکام الخبر واقتضاء أن يكون المخاطبون، وهم هنا الملائكة المعنيون

فيه، إلا بعد أن يحظى هذا المتكلّي بمقدار من التشيع بالوعي الجمالي، "إذ دون حصول ذلك الوعي الجمالي، تضيع الرسالة الأدبية بين أناس لا يفهمونها، ولا يدركون أبعاد جمالها"<sup>38</sup>.

إنه مرتبط ببلاغة التلقي عند عبد الملك مرتاض، فهو يفترض لو أنَّ كثيـرـ شـعـراءـ عـصـرـ مـنـ العـصـورـ، وـأـكـثـرـهـمـ فـصـاحـةـ وـأـكـثـرـهـمـ بـيـانـاـ، أـلـقـىـ قـصـيدـ لـهـ فـيـ الناسـ مـنـ ذـوـيـ الـبـلـادـ الـأـدـبـيـ وـالـفـجـاجـةـ الـذـوـقـيـ، فـكـانـ الـحـاـصـلـ أـنـهـ لـاـ يـفـهـمـ لـغـتـهـ بـلـهـ أـنـ يـتـعـلـقـواـ بـبـلـاغـتـهـ، وـعـنـدـئـذـ يـضـيـعـ شـعـرهـ وـتـتـدـىـ مـرـتـبـتـهـ مـنـ الـفـحـولـةـ إـلـىـ الشـوـعـيرـيـةـ. وـهـذـاـ مـدـعـىـ الـوـقـوفـ عـلـىـ مـاـ أـوـلـاهـ النـقـادـ الـقـدـامـيـ مـنـ وـجـوبـ اـرـتـفـاعـ مـسـتـوـيـ بـلـاغـةـ التـلـقـيـ عـلـىـ الـأـقـلـ إـلـىـ مـسـتـوـيـ درـجـةـ بـلـاغـةـ الـإـرـسـالـ؛ لـأـنـهـ "مـنـ كـانـ مـنـ أـهـلـ الـلـسـانـ الـعـرـبـيـ، إـلـاـ أـنـهـ لـيـسـ بـلـغـ يـفـيـ الصـاحـةـ الـحـدـ الـذـيـ يـتـاـهـيـ إـلـىـ مـعـرـفـةـ أـسـالـيـبـ الـكـلـامـ، وـوـجـوهـ تـصـرـفـ الـلـغـةـ، وـمـاـ يـعـدـوـنـهـ فـصـيـحاـ بـلـيـغاـ بـارـعاـ مـنـ غـيـرـهـ، فـهـوـ كـالـأـعـجمـيـ"<sup>39</sup>. ذلك أنَّ مثل هذا المتكلّي لا يقدر على أن يقف على مدى بلاغة النص الموجّه إليه؛ فهو عند الباقلاني كالفارسي وإن كان عربياً لأنَّه يعامل معاملة من ليس من أهل اللسان العربي لقلة بضاعته فيها.

33 - عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، ص، 240.

34 - أبو بكر بن الطيب الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، سنة، 1963، ص، 113.

35 - الأدمي، الموازنة، ص، 271.

36 - أمبرتو ايكيو، القارئ النموذجي، ترجمة أحمد بوحسن، ضمن طرائق تحليل السرد الأدبي، ط1، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، سنة، 1992م، ص، 160.

37 - ينظر، عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، ص، 243.

من جمالية وإيجاز، إلى درجة التأثير في النفس من أقرب طريق، وأقل كم من الكلام؛ لأنّ "الذي يستطيع إقناع الناس بقليل من الكلام، لابدّ له من أن يصطنع فيه كلّ ما يمكن أن يظاهره على بلوغ قلوب مستمعيه أو متنقيه، بما في ذلك تكاليف استعمال أصناف الاستعارات والمجازات".<sup>40</sup>

انطلاقاً من قول الرمانى في ماهية البلاغة حين يقرر أنها ليست "إضفاء المعنى؛ لأنّه قد يفهم المعنى متكلّمان: أحدهما بلغى، والأخر عيّ، ولا بلاغة أيضاً بتحقيق الفظ على المعنى؛ لأنّه قد يتحقق الفظ على المعنى وهو غثٌّ مستكره، ونافر متتكلف. وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في حسن صورة من الفظ، فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن".<sup>41</sup> تشكّل مفهوم بلاغة التلقى عند عبد الملك مرتأضاً، وقام على "محورين اثنين: أحدهما هو التبليغ من حيث هو على وجه الإطلاق، وهي الوظيفة الأولى للغة في حقل البلاغة، وهو ما ينافق معنى العيّ والفهمة. وأحدهما الآخر، هو حسن التبليغ: أي ما يمكن أن نطلق عليه بتعبير معاصر "جمالية الإرسال" من أجل التأثير في المتلقى، وأسر انتباذه فيتلذذ باستقبال الرسالة الكلامية المبثوثة إليه في أحسن صورة.

<sup>40</sup> - المصدر نفسه، ص، 27.

<sup>41</sup> - الرمانى، النكت في إعجاز القرآن، ص، .69

بقوله تعالى: ﴿وَأَنْبُئُنِي بِأَسْمَاءِ هُؤُلَاءِ...﴾ [البقرة: 31]، "علمين بتلك الأشياء، حتى يصحّ مطالبتهم بذكر أسمائها"<sup>38</sup>. فهذا ما يستوجب على واضح الرسالة استحضار المتلقى ومستواه وضرورة استجابته لها ببناءً على تقبله لها.

عندئذ يكون كلّ ما سبق الحديث فيه إنما ينشأ في دائرة البيان أو التبليغ الذي يرى فيه عبد الملك مرتأضاً أن "الجاحظ ربما كان يجنب بمفهوم البيان إلى ما يطلق عليه علماء اللغة في العصور الحديثة "التبليغ" أو "الاتصال" (Communication)، ولذلك ثُلُفيه يؤسس لنظرية الاتصال في كلّ من كتابيه "البيان والتبيين" و"الحيوان" فيبلغ بمكوناتها إلى خمسة وهي: الفظ، والإشارة، والعقد، والخط، والحال أو النسبة".<sup>39</sup> ليصير العيّ\_ الذي استعاد الجاحظ بالله منه\_ أشد العناصر إبعاداً للتأثير الذي ينشده الباث في المتلقى.

- **أ هو الإبلاغ البلاغي؟ أم أي إبلاغ و أي تبليغ نريد؟**

إن من المفاهيم التي علقت بالبلاغة في الاستعمال العربي، المفهوم الذي ينحو حول حسن التبليغ بما يتضمنه

<sup>38</sup> - فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق، الدكتور إبراهيم السامرائي والمدكتور محمد برّكات حمدي أبو علي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، سنة، 1985م، ص، 73.

<sup>39</sup> - المصدر السابق، ص، 23.

بحبوحته، وتكون القراءة الناقلة عندئذ هي الفارضة على النص سلطتها؛ لأنها تسعى إلى كشف ما هو في باطنه قارئةً أبعاده التي لم يتلفظ بها بمفرداته، ويكون مبعث القراءة هو البحث عن بؤرة الفنية ومركز ثقلها في النص. الشيء الذي يفرض "على الناقد أنْ يسأل: أين بؤرة القيم الفنية؟ هل هي القصيدة أو قارئ القصيدة أم العلاقة بين الاثنين؟"<sup>44</sup>. وعندئذ تكون بلاغة التلقي – كذلك – هي ما يفرض على المرسل أن يتجاوز صياغة العبارة لأجل البيان أو الإفهام، بقدر ما يتواه من جلب واستهواه وإمتاع لمتلقيه.

### - جمالية بلاغة التلقي

يقول عبد الملك مرتابض "فَكَانَ بلاغة التلقي عند قدماء العرب، كانت تتهدى على حب المبالغة والإيغال"<sup>45</sup>. وهو في ذلك على رأي علي بن عبد العزيز الجرجاني حينما لاحظ أن الإفراط في النظر إلى الأشياء "من مذهب عام في المحدثين، موجود كثير في الأوائل، والناس فيه مختلفون، فمستحسن قابل، ومستقبح راد، ولم يتجاوز الوصف حدّها، جمع عندها، ولم يتجاوز الوصف حدّها، جمع

ويعني قوله: "حسن الصورة من اللفظ" أنَّ جمالية اللفظ في وظيفة البلاغة واردة، بل مطلوبة؛ إذ ما يكون لرسالة كلامية أن تُبلغ في ألفاظ مسترذلة، وعبارات مستقبحة. فـ"فَكَانَ حقل البلاغة ما كان من الكلام جميلاً، ومن التعبير فصحيحاً، وما خرج عن ذلك من ركيك الكلام، وسخيف التعبير، لا تشتعل به البلاغة إلَّا لرده ورفضه وإلا من أجل التبيه على عوَارِه وعَارِه"<sup>46</sup>. فخير الكلام عند العرب ما فهمته العامة، ورضيته الخاصة؛ لأنَّه يكون في حاله تلك قد حقق الإيصالية والفنية، أو لـ"نُقلَ إنَّ الكلام هنا استجاب لوظيفتي الإبلاغية والبلاغية".

فالكلام بهذه المواصفات يكون قد تجاوز ذلك التواصل اللغوي في هيئته المبتذلة التي تقع بين عامة الناس، إلى مرتبة الإبلاغ التي قوامها جملة من الدعائم المشابكة فنياً ودلالياً وجمالياً، وهي التي يكون بموجبها الكلام بليغاً، كما أوضحنا من قبل. فقد عرف عمرو بن عبد الله البلاغة، بأنها "تحير اللفظ، في حسن الإفهام"<sup>47</sup>.

إنَّ بلاغة التلقي إذاً هي ما يوجد النص في شكله الفني الذي يحول النص من حيز الإبلاغ إلى أداة إنتاج من خلال التقاطع الحادث بين المبدع والمتلقي أثناء تعاملهما مع هذا النص الذي يلتقيان في

<sup>44</sup> – رينيه ويليك، واوستن وارين، نظرية الأدب، ترجمة محبي الدين صبحي، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، سنة 1981م، ص، .263

<sup>45</sup> – عبد الملك مرتابض، نظرية البلاغة، ص، .240

<sup>46</sup> – المصدر السابق، ص، 30/29  
<sup>47</sup> – الجاحظ، البيان والتبيين، 1/126

## مكتبة البحث:

1. أبو بكر بن الطيب الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، سنة: 1963.
2. الجرجاني، القاضي علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتبني وخصومه، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوي، ط4، مطبعة عيسى بابي الحليبي وشركاه، مصر، سنة: 1966.
3. أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، سنة: 1986.
4. أبو الحسن علي بن عيسى الرمانى، النكٌت في إعجاز القرآن، ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام، دار المعرف، مصر، ط2، سنة: 1968.
5. خديجة غفريري، سلطة اللغة بين فعلى التأليف والتلقى، إفريقيا الشرق، المغرب، 2012.
6. ابن رشيق أبو علي الحسن: العمدة في محسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محبي الدين عبد الحميد، ط5، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1981.
7. عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، متابعة لجماليات الأسلبة: إرسالاً واستقبلاً، دار القدس العربي، الجزائر، سنة: 2010.

بين القصد والاستيفاء، وسلم من النقص والاعتداء، فإذا تجاوزها اتسعت له الغاية، وأدّته الحال إلى الإحالة، وإنما الإحالة نتيجة الإفراط، وشبّة من الإغراق، والباب واحدٌ، ولكن له درجٌ ومراتب<sup>46</sup>.

إنّ الأدب – في ضوء هذا الفهم – لا يصير أدباً بما يتضمنه من أفكار؟ لأنَّ فنية النص غير منوطة بالقيمة الفكرية الكامنة فيه بقدر إناطتها بالتركيب اللغوي الذي يصوغه ويقدمه لنا الأديب. لذا يصبح "موضوع الشعرية هو الكشف عن أسرارها"<sup>47</sup>. وعندها لا يمكن لهذه الحقيقة أنْ تؤثّر إلّا إذا وجد قارئ فعلٌ لذلك النص، يستطيع الوقوف على مدى توفيق المبدع في وصوله إلى الغاية المنشودة من وراء عمله الفني، بل يتجاوز ذلك القارئ حكمه السابق إلى تقويم هذه الغاية.

<sup>46</sup> – الجرجاني، القاضي علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتبني وخصومه، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوي، ط4، مطبعة عيسى بابي الحليبي وشركاه، مصر، سنة: 1966م، ص، 420.

<sup>47</sup> – جون كوين، النظرية الشعرية، ترجمة الدكتور أحمد درويش، ط4، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، سنة 2000م، ص، 259.

- الأدبي، ط1، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، سنة: 1992م.
15. جون كوين : النظرية الشعرية: ترجمة الدكتور أحمد درويش: ط4: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع: القاهرة: سنة: 2000م.
16. رينيه ويليك: واوستن وارين: نظرية الأدب: ترجمة محبي الدين صبحي: ط2: المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت: سنة: 1981م.
8. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، د.ت.
9. فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق، الدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور محمد برकات حمدي أبو علي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، سنة: 1985م.
10. أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، الموازنة، بين شعر أبي تمام والبحترى، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، ط2، مطبعة السعادة، مصر، سنة: 1959م.
11. لطفي عبد البديع: التركيب اللغوي للأدب، بحث في فلسفة اللغة والاستطيطقا: ط1: مكتبة لبنان ناشرون: الشركة المصرية العالمية للنشر: لونجمان: سنة: 1997م.
12. موسى صالح بشري: نظرية التلقى أصول... وتطبيقات، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 2001م.
13. أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، سنة: 1986.

### المراجع المترجمة

14. أمبرتو ايکو: القارئ النموذجي، ترجمة أحمد بوحسن، ضمن طرائق تحليل السرد



## **المحور الثاني**

# **معالم البلاغة الجديدة في تفكير عبد الملك مرتاب اللغوي**

- المصطلح البلاغي بين الغموض والجمود  
الكنية أنموذجاً  
أ.د. خليل عودة  
عميد كلية الدراسات العليا  
جامعة النجاح الوطنية - فلسطين
- مفهوم الأسلوب في تفكير عبد الملك  
مرتاب اللغوي.  
د. طاطة بن قرماز  
أستاذة محاضرة قسم اللغة العربية  
وآدابها  
جامعة حسيبة بن بوعلي / الشافعية  
الجزائر
- أسس عبد الملك مرتاب المنهجية  
بين القراءة الابداعية والنقدية  
إبراهيم عبد النور  
جامعة: بشار - الجزائر.
- بلاغة التلقى عند عبد الملك مرتاب بين  
التنظير والممارسة  
دكتورة متلف آسية  
قسم اللغة العربية وآدابها جامعة  
الشافعية الجزائر

